الأدب الجزائرى الحديث

توطئة

الأدب الجزائرى أدب مستقل ، ذو خصائص ذاتية مستمدة من البيئة التى يعيش فيها الشعب الجزائرى فهو أدب قومى وإن شارك الجزائريين فيه كتابٌ فرنسيون وأجانب ولدوا وعاشوا فى إفريقية الشمالية ، لأن أدب هؤلاء تجاوز فى تصوراته وموضوعاته المحيط الإفريقى إلى آفاق تتصل بالأدب الأوربى والروح الأممية أكثر منه بالأدب العربى والروح العربية ، فهو أدب مصطنع ، مجلوب ، غريب ، فى حين أن الأدب الجزائرى الذي يكتبه كتاب جزائريون هو أدب واقعى ، فيه انعكاس لروح الأمة الجزائرية فى عواطفها وارتكاسها تجاه الوجود ، وأمانيها وأساطيرها وتقاليدها . فالأدبان منفصلان متميزان يصدران عن عالمين منفصلين متميزين : اللاتينى والعربى .

ومن الغريب ، بل من سخرية الأقدار أن يجتمع هذان

الأدبان فى نقطة مشتركة هى لغة التعبير ، فإن الأدب الجزائرى الحديث يكاد يكون كله مكتوباً بالفرنسية لا بالعربية ؛ نعم ! بلغة فرنسية عالية لا تقل فى رقيها ونصاعتها وروائها عن لغة أكبر كتاب فرنسا المعاصرين . ومرد هذا الشذوذ إلى الأوضاع التى خلقها الاستعمار الفرنسى فى تلك البلاد منذ مائة وسبع وعشرين سنة ، فقد عمل الاستعمار عند احتلال الجزائر — التى فوجئت به ولم تكن قد أعدت له العدة واستكملت مؤهلاتها العلمية والقومية — أقول : إن الاستعمار عمل على القضاء على اللغة العربية وإحلال الفرنسية مكانها تمهيداً لعملية الامتصاص ودمج الشعب الجزائرى فى الأكثرية الفرنسية وربط مقدراته بفرنسا مباشرة ؛ وبما أن الفرنسية هى لغة المستعمر القوى فقد ترتبت على ذلك أمور وجد الجزائريون أنفسهم إزاءها أمام أمرين : إما أن يتلقوا علماً بسيطاً محدوداً يعطى على الطريقة البدائية القديمة لا يوفر لصاحبه شيئاً من التقدم والمنافع والارتقاء فى السلم الاجتماعى ، أو علماً يدرس فى مدارس منظمة ، حديثة توفر للطالب مزايا عقلية ومادية تساير التقدم والحضارة الحديثة ، فاختاروا الثانى — إن كان ثمة اختيار — بل لقد وصلت المأساة إلى حد أن زهد الجزائريون على مر الزمن

باللغة العربية . وأقبلوا بحكم الواقع الاستعمارى على تعلم الفرنسية جاعلين منها لغة تعبير وتخاطب وثقافة وعلم . شأنهم فى ذلك شأن الهنود والباكستانيين فى اعتمادهم على اللغة الإنكليزية حتى صارت لغتهم الرسمية الخاصة . وهكذا فقد وجدت اللغة والثقافة الفرنسيتان مكاناً فارغاً فى الجزائر فاحتلتاه ! .

وهذا لا يعنى أنه لم يكن بين الجزائريين من يجيد اللغتين ويتذوق الثقافتين ، إلا أن هؤلاء على قلتهم أصيبوا بما يصاب به كل متأرجح بين لغتين وثقافتين من تمزق فى الشخصية الذى يؤدى — إن لم تسعفه الظروف والمواهب — إلى العقم والجفاف ، لأن إحدى اللغتين كما يقول الجاحظ تأخذ من الأخرى ، وتكون الغلبة فى مراحل هذا الصراع للغة القوى الحاكم الذى يمهد لها سبل التوغل والنمو والانتشار .

ويقينى أنه فى اليوم الذى يتحرر فيه الجزائريون من محنتهم الاستعمارية ، فيتعلمون ويجيدون اللغة العربية ، فإنهم سيكونون فى طليعة الشعوب الغربية المفكرة الواعية ، لأن المادة الفكرية عند الفئة الممتازة منهم موجودة ، والاستعداد الذهنى والنضج العقلى كائنان ولا ينقصهم إلا أداة التعبير بلغة الضاد ، حتى إذا استكملوا هذه العدة ، وسدوا هذا النقص تكون

قد انضمت إلى الفكر العربى المعاصر عناصر حيوية جديدة تشد من أزره وتوسع من آفاقه ؛ بل أذهب بعيداً فإن تجديد الأدب العربى وبخاصة الروائى والقصصى منه سيكون على يد هذه الطليعة الجزائرية المثقفة من الأدباء والمفكرين .

طلع الأدب الجزائرى حيا قويا ، ولكنه لم يطلع فى دنيا العرب بل فى أدب الفرنسيين فاحتل الأدباء محمد ديب ومولود فرعون وإدريس الشرايبى ومولود المامرى ومالك الوارى ومالك الحداد وكاتب ياسين . وغيرهم مكانهم فى الأدب المعاصر ذى التعبير الفرنسى ، وتميز هذا الأدب من غيره من الآداب فى واقعيته وقوميته وشدة ارتباطه بالأرض الجزائرية التى يعيش عليها شعب يريد الاحتفاظ على الرغم من سياسة التجهيل والإفقار المادى والفكرى بمقوماته النفسية وذخيرته الروحية وطابعه الأصيل ، فلم ينس أدباء الجزائر فى عالمهم الثقافى الرفيع ولغتهم المستعارة الحقيقة المؤلمة التى يعيش فيها أبناء قومهم ، بل عملوا ببراعة تحت ستار الفن الروائى على تثبيت صورة الجزائر فى أذهان الفرنسيين ومن يجيد الفرنسية من بنى قومهم ، ففى هذا الأدب مرارة وألم قلما يرتفعان إلى حد المطالبة الصريحة بالإصلاح والعدالة ، أو يهبطان إلى التضرع والشكوى ، بل بقى هذا

الأدب ضمن التعبير الهادئ الجميل يجلله الشعور بالكرامة والإيمان بالحق وعدالة القضية ويسوده الإباء والترفع .

إن الصفة البارزة فى الأدب الجزائرى الحديث هى « الواقعية » التى تعكس الأشياء والحياة والتجارب الفردية والجماعية فى إطار فنى . فهو إذن أدب حقيقى كتبه أناس من صميم الشعب عميقو النظرة إلى الوجود ، شديدو الحساسية بالصلات الإنسانية التى تربط بين الناس ، تتطور وتتموج فى أدبهم شخصيات متنوعة الأشكال والشيات فتبدو فى صراعها الداخلى مع ذواتها وفى تفاعلها مع العالم الخارجى المستكينة لمشيئته حيناً والثائرة المتمردة عليه حيناً آخر ؛ ولا أقصد بالإطار الفنى ذلك الفن المجرّد المتعالى عن محيط الكاتب فيعوقه عن تحقيق رسالته المفيدة بل الفن الذى يعكس الحقائق فى شكل حسّى والذى يصدر أحكاماً على مظاهر الحياة تلك الأحكام التى من شأنها إيجاد الوعى وخلق المعرفة بين طبقات الشعب فى سبيل القضاء على عالم فاسد يدعمه نظام استعمارى فاسد وتحقيق عالم أفضل وحال أحسن .

إن كتاب الجزائر يشكلون الطليعة الواعية التى فهمت الماضى ووعت الحاضر وتطلعت إلى المستقبل .

إنني سوف لا أعرض لجميع كتاب الجزائر شارحاً أو محللا آثارهم فالعمل أصعب من أن أقوم به بل سأقصر كلامي على خمسة منهم وهم: إدريس الشرايبي ومحمد ديب ومولود فرعون وكاتب ياسين ومولود المامري ولم يكن انتخابهم على سبيل الترجيح والتفضيل بل تبعاً للظروف التي يسّرت لي اقتناء آثارهم دون سواهم .